

عناية الإسلام بالتدرج في الدعوة والأحكام

محمد علي حسين*

ملخص البحث:

إن الإسلام دين فطري ونظام طبيعي. يهتم بالعادات البشرية في تغييرها من طابع جاهلي إلى طابع إسلامي. فلذا نرى أن الأنبياء والرسل لم يقدموا دعوتهم بأسرها أمام قومهم في يوم واحد. وإنما دعاهم إلى مقصدهم عبر مراحل عديدة، فنجد مثال ذلك من دعوة محمد - صلى الله عليه وسلم - في القرآن الكريم . ومن دعوة نوح - عليه السلام - ودعوة إبراهيم - عليه السلام. وفرض الإسلام عليهم العبادات من الطهارة والصلاة وغيرها مثلا- تمشيا على قاعدة التدرج، كما حرم عليهم المحرمات من الخمر والربا وغيرها على نفس المنهج.

المقدمة

ما جاء الإسلام برسالته في يوم واحد، والمجتمع الإسلامي لم يتكون في تشريعه دفعة واحدة، ولم ينقل فجأة من وضعه السابق إلى الوضع المرغوب فيه، وإنما الوقت الذي شغله نزول الوحي بالقرآن الكريم كان هو الوقت الذي تم فيه التحول من مجتمع الوثنيين والماديين إلى مجتمع أصحاب الروحية والقيم الإنسانية، والتنجيم في نزول الوحي والتدرج في تقديم الدعوة والأحكام والذي مثل في المنهج القرآني في تطور بناء المجتمع. وتطور تشريع المجتمع الإسلامي في نزول الوحي به لا يعني تطور مبادئ الإسلام، إذ مبادئ الإسلام ثابتة وقائمة، لأنها تمثل علم الله الكامل الذي لا يقبل الصيرورة والتطور بحال، وإنما التطور والتدرج هو في "النزول" بتلك المبادئ حسب أوضاع المجتمع. ولقد عنى الإسلام بالتدرج في تقديمه لرسالته حيث شرع معظم أحكامه

* المحاضر . قسم علوم القرآن والدراسات الإسلامية، الجامعة الإسلامية العالمية شيتاغونغ

بهذه الوتيرة. وقد سار أياما كثيرة بل سنوات عديدة في تقرير حكم واحد من أحكامه. وكذلك سلك التدرج في تقديم دعوته.

التدرج في الدعوة

إن الإسلام قدم دعوته - في كل عصر - شيئا فشيئا، ودعا الناس انضالين إلى سبيله بالتدرج. وكان هذا منيحا لجميع الأنبياء، والرسول في دعوتهم لأقوامهم. ويتضح الأمر في النقاط التالية:

أولاً: التدرج في دعوة النبي - صلى الله عليه وسلم

إن القرآن الكريم كتاب الله الأخير بين كتبه السماوية، وقد أنزله من فوق سبع سماوات إلى أهل الأرض هداية لهم في الحياة وإرشادا لهم في السلوك وداعيا لهم إلى طريق الفوز والنجاة وبصالحا لهم لأحوالهم الفردية والجماعية. فهو كتاب دعوة الإسلام ودستور حركته. ولم تكن دعوته الأولى إلى فروع المبادات أو إلى إقامة الحدود، ولم يلفت أنظار المخاطبين إلى الفرائض والواجبات أول يوم، وإنما كانت دعوته قائمة على قاعدة التدرج. وكانت في العصر المكي منذ ثلاثة عشر عاما تدور حول قضية واحدة. وهي قضية الإيمان بالتوحيد والرسالة والآخرة. ويمكننا أن نقسم الدعوة القرآنية إلى ثلاث مراحل رئيسية. وهي:

المرحلة الأولى: الدعوة السرية:

كان الرسول - صلى الله عليه وسلم - يدعو الناس إلى الإسلام في هذه الفترة مخفيا عن أعين الناس. وكانت الدعوة شخصية وفردية. مقدمة بكلمات معسولة، مميّلة للقلوب والأذان، وبأسلوب جذاب. مستعينة بأمثال متداولة بين المخاطبين. وهذه المرحلة كانت ممتدة مدة أربع سنوات كما ذكره الأستاذ أبو الأعلى المودودي في تفسيره تفهيم القرآن^(١) وقال الأستاذ صفى الرحمن المباركفوري: "كانت دعوة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - السرية مدة ثلاث سنوات"^(٢).

المرحلة الثانية: الدعوة الجهرية.

بعد أن أنزل الله عز وجل قوله: {وأنذر عشيرتک الأقریین} وخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنین. {سورة الشعراء: ٢١٤-٢١٥}. قام رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بدعوة أقربائه

في بيته على مائدة واحدة. وأراد أن يقدم الدعوة الجديدة أمام الضيوف، ولكنه لم يستطع ذلك لمخالفة أبي لهب. وعلى الرغم من كل ذلك أنه دعاهم في اليوم التالي. وخاطب أمامهم بقوله: "يا بني عبد المطلب، يا عباس، يا صفية (عمة رسول الله) يا فاطمة (بنته صلى الله عليه وسلم) أنقذوا أنفسكم من النار. فإني لا أملك لكم من الله شيئاً. سلوني من مالي ما شئتم".^(٤)

وعندما أنزل الله تعالى قوله: {فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين} (سورة الحجر: ٩٤). صعد النبي - عليه الصلاة والسلام جبل الصفا ونادى بأعلى صوته "ياصباحاه" ويبدو أنها كانت صيحة إنذار وتنبية مألوفة لديهم عند الإعلان بأمر خطير، وخرجت قريش حيث مصدر النداء، واجتمعوا إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - فقال - عليه السلام - "أرايتم إن حدثتكم أن العدو مصبحكم أو ممسيكم أكنتم تصدقوني؟"

وتنطق الحاضرون على الفور.. نعم.. ما جربنا عليك كذباً." قال لهم النبي - صلى الله عليه وسلم - "إن الرائد لا يكذب أهله. والله الذي لا إله إلا هو إني رسول الله إليكم خاصة وإلى الناس عامة، والله لتموتن كما تنامون ولتبعثن كما تستيقظون، ولتحاسبون بما تعملون، وإنها الجنة أبدا والنار أبدا".^(٥)

فقد رأينا أن الرسول - صلى الله عليه وسلم - دعا الناس في هذه المرحلة إلى التوحيد، وكانت دعوته كذلك إلى التقوى وإلى مبادئ الأخلاق الحسنة والقيام بجميل الصبر في سبيل محاطة بالأذى ومحفوظة بالأشواك. وكانت الدعوة تناقش أحوال الكفار والمشركين وتظهر أخطأهم وزلاتهم بأسلوب من الكلام مؤثر وحكيم.^(٦) ومع ذلك كله كان الإسلام في هذه المرحلة تحت سيطرة الشرك والكفر.

المرحلة الثالثة: الدعوة في المدينة:

دخلت الدعوة الإسلامية في هذه المرحلة في ميدان جديد، تغيرت به أحوال الرسالة. ووجد الإسلام مسقط رأسه وملجأ استقراره، وذلك بعد الهجرة إلى المدينة المنورة، حيث ظهر الإسلام ديناً متكاملًا وصار المسلمون أمة مستقلة قائمة على أسس إسلامية متينة، ضد القوى الطاغية الشاملة، وقامت فتنة جديدة برفع رأسها هنا في هذا الميدان أمام الإسلام. وهي فتنة النفاق. فبدأ ينزل الوحي علاجاً لهذه الخطورات الهدامة، وإرشاداً للمسلمين، وزاداً لأرواحهم، ومصدراً لقواهم، ودستوراً لدولتهم. ونظاماً لمجتمعاتهم. وتهذيباً لسننهم وأخلاقهم وتعليماً لمعاملاتهم مع إخوانهم وأعدائهم.^(٧)

وهكذا تدرج القرآن الكريم في تقديم دعوته يوماً فيوماً حتى نرى حامله - صلى الله عليه وسلم - يرسل معاذاً - رضي الله عنه - إلى اليمن وأوصاه بأن يقوم بالترج في الدعوة كما رواه البخاري وسلم مع اختلاف بعض الكلمات عن ابن عباس - رضي الله عنه - أنه قال: "أن النبي صلى الله عليه وسلم بعث معاذاً - رضي الله عنه - إلى اليمن فقال: "ادعهم إلى شهادة أن لا إله إلا الله وأني رسول الله فإن هم أطاعوا لذلك فأعلمهم أن الله قد فرض عليهم خمس صلوات في كل يوم وليلة فإن هم أطاعوا لذلك فأعلمهم أن الله افترض عليهم صدقة في أموالهم تؤخذ من أغنيائهم وترد في فقرائهم."^(٤)

وقد عدَّ صاحب فقه السيرة مراحل أربع في دعوة القرآن الكريم، وهي كما يقول:

المرحلة الأولى: الدعوة سرا، واستمرت ثلاث سنوات.

المرحلة الثانية: الدعوة جهراً، وباللسان فقط، واستمرت إلى الهجرة.

المرحلة الثالثة: الدعوة جهراً. مع قتال المعتدين والبادئين بالقتال أو الشر واستمرت هذه المرحلة إلى عام صلح الحديبية.

المرحلة الرابعة: الدعوة جهراً مع قتال كل من وقف في سبيل الدعوة وامتنع عن الدخول في الإسلام بعد فترة الدعوة والإعلام، من المشركين والملاحدة والوثنيين.^(٥)

ثانياً: التدرج في دعوة نوح - عليه السلام

والناظر في دعوة نوح - عليه السلام - يجد أنه أيضاً سلك مسلك التدرج، وهو كما يلي:

١- بدء الدعوة بالتلطف ولين الكلمة:

إن قوم نوح هم أول أمة في البشرية خرجت عن خط الهداية الإلهية وشذت عن طريق التوحيد الذي تقرر في الأرض منذ آدم - عليه السلام، فبدأ نوح - عليه السلام - أولاً - يوجه قومه إلى الحقائق الغائبة عنهم من أمر الألوهية والرسالة، وذلك بالتلطف والترفق والكلمات المسولة، والدليل على ذلك قوله تعالى في بداية سورة نوح كما أخبرنا ربنا قائلاً: { إنا أرسلنا نوحاً إلى قومه أن أنذر قومك من قبل أن يأتيتهم عذاب أليم. قال يا قوم إني لكم نذير مبين. أن اعبدوا الله واتقوه وأطيعون. يغفر لكم من ذنوبكم ويؤخركم إلى أجل مسمى إن أجل الله إذا جاء لا يؤخر لو كنتم تعلمون } (سورة نوح: ١-٤).

٢- تنويعه لأساليب الدعوة:

ثم أخذ نوح - عليه السلام - ينوع الأساليب في تفهيم الدعوة للناس في المرحلة الثانية. فلم يجمد على حال واحدة ولم يلتزم طريقة بعينها. وإنما أخذ يدعوهم بالليل والنهار والسر والإجتهار. يندر تارة ويرغب أخرى. ويذكرهم بنعم الله حيناً ويوعدهم بعذابه آخر كما نقل القرآن الكريم هذه المرحلة الطويلة من دعوته قائلاً: { قال رب إنني دعوت قومي ليلاً ونهاراً. فلم يزدتهم دعائي إلا فراراً. وإنني كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم في آذانهم واستغشوا ثيابهم وأصروا واستكبروا استكباراً. ثم إنني أعلنت لهم وأسررت لهم إسراراً. فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفاراً. يرسل السماء عليكم مدراراً. ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهاراً. } (سورة نوح: ٥-١٢).

٣- التصريح بالدعاء على القوم:

ظل نوح - عليه السلام - يدعو قومه واستمرت دعوته قرابة ألف سنة بالليل والنهار وبشتى فنون القول وضروب التلطفات. ولكن القوم أبوا إلا الإنكار. وما آمن معه إلا قليل. جهد طويل وحصيلة ضئيلة، حصيلة تجعل اليأس يخامر القلب ويتردد في النفس، حتى عرف نوح - عليه السلام - بإخبار ربه بأنه لا يؤمن من قومه إلا من قد آمن. وقد حق غنيهم قول العذاب. فدعا عليهم أخيراً كما نقل عنه القرآن الكريم: { وقال نوح رب لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً. إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجراً كفاراً. } (سورة نوح: ٢٦-٢٧).

ثالثاً: التدرج في دعوة إبراهيم - عليه السلام

وحيثما نمنع النظر في دعوة إبراهيم - عليه السلام - نرى التدرج الذي سلكه. ونزل إبراهيم - عليه السلام - الميدان الدعوي يجادل القوم بالحجة ويقرع بالبينة ويستخدم معهم سبيل العقل والمنطق، فقد ذكر الدكتور جمعه علي الخولي في كتابه القيم "تاريخ الدعوة" منهج إبراهيم - عليه السلام - في دعوته ما مغزاه: أنه لا يعلن مخالفتهم ولا يحتقر معبوداتهم ويتدرج معهم واحدة واحدة في صورة من يبحث عن آلهة الحق في إطار ذاته، لعقيدة شخصية له حتى يصل في النهاية إلى بطلان هذه العقائد. قال تعالى: { وإن قال إبراهيم لأبيه آزر أنتخذ صنماً آلهة إنني أراك وقومك في ضلال مبين. وكذلك نري إبراهيم ملكوت السماوات والأرض وليكون من الموقنين. فلما جن عليه الليل رأى كوكباً قال هذا ربي فلما أفل قال لا أحب الآفلين } (سورة الأنعام: ٧٤-٧٦). وفي هذا تعريض بألتهتهم وإشارة إلى بغضها وكراهيتها، ثم

تحول إلى القمر: { فلما رأى القمر بازغا قال هذا ربي فلما أفل قال لئن لم يهديني ربي لأكونن من القوم الضالين } (سورة الأنعام: ٧٧).

وفي هذا إشارة إلى أن هناك إلها حقا يرجع إليه الكون كله، ويبيده - وحده - الهداية، وهو الذي يمنح التوفيق إذا انتاب الإنسان شك أو حيرة. ثم تأمل قوله تعالى: { لأكونن من القوم الضالين } ترى فيها تعريضا لضلالتهم لتلميحا لا تصريحها. فلم يقل إنكم أنتم الضالون، لأنكم تعبدون مخلوقا يأفل حتى لا يستثير تأثرتهم ويشير كوامن العناد في نفوسهم. ثم تحول إلى الشمس لأنها أكبر وأضخم وأشد ضوءا وحرارة... { فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربي هذا أكبر فلما أفلت قال يا قوم إني بريء مما تشركون. إني وجهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين } (سورة الأنعام: ٧٨-٧٩). أعلن لهم خيبة الرجاء في الجميع. وأن واحدا منها لا يستحق أن يكون إلها، فهي تظهر وتغييب، وإذا كانت تغييب فمن يرعى الخلائق عند غيابها من يدبر أمرها إذا أفلت... فلا بد إذن من إله خلق الكل وهيمن على مسيرتها وحركتها. (١١)

التدرج في تشريع الأحكام

إن الإسلام دين فطري ومنهج طبيعي. فلذا اهتم دائما بطبيعة البشرية، وأنزل أحكامه رويدا رويدا. نظرا إلى الظروف والأوضاع. أخذ الناس إلى غايته وهم لا يجدون فيه أي مشقة ولا صعوبة. وذلك لأنه كان تمشيا على قاعدة التدرج.

أولا: التدرج في مشروعية الطهارة:

إن الطهارة لها أهمية كبيرة في الإسلام. سواء كانت حقيقية أو حكمية. لأنها شرط دائم لصحة الصلاة التي هي ركن من أركان الإسلام. وقد اهتم الإسلام بنوعي الطهارة المادي والمعنوي، فقال الله تعالى مدحا للمتطهرين: { إن الله يحب المتطهرين } (القرآن الكريم، سورة البقرة: ٢٢٢).

وقد تدرج الإسلام في مشروعية الطهارة إلى عدة مراحل وصور متعددة جريا على قاعدة التدرج في تشريع الأحكام، وبيان تلك المراحل كما يلي:

المرحلة الأولى:

كان المشركون لا يهتمون بالطهارة. فلما جاء الإسلام اهتم بهذا الأمر وسلك في شرعيتها منهج التدرج. فدعا أولاً إلى أصل الطهارة كما في سورة المدثر: {وثيابك فطهر} (سورة المدثر: ٤). فالتطهير لفظ عام يتناول الطهارة الحسية والمعنوية. وهذا أصل في طهارة الثوب والبدن والمكان. (٢٠)

كذلك قوله تعالى في سورة الواقعة: {لا يمسه إلا المطهرون} (سورة الواقعة: ٧٩). يدل على أصل مشروعية الطهارة. وفي قصة إسلام عمر - رضي الله عنه - أن أخته فاطمة بنت الخطاب منعت من مس الصحيفة حتى اغتسل وهي تدل على الأصل في مشروعية الغسل لموجبه. (٢١)

المرحلة الثانية:

وبعد مشروعية أصل الطهارة تدرج الإسلام إلى تفضيلها. فجاء بمشروعية الوضوء قبل الهجرة عقب فرض الصلاة، (٢٢) لأن الصلاة لا تصح بدون الطهارة كما قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم : {لا يقبل الله صلاة بغير طهور ولا صدقة من غلول} (٢٣) وقول الله تعالى: {يا أيها الذين آمنوا إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم وأيديكم إلى المرافق وامسحوا برؤسكم وأرجلكم إلى الكعبين} (سورة المائدة: ٦).

المرحلة الثالثة:

ثم تدرج الإسلام إلى مشروعية التيمم. فشرع في غزوة بني المصطلق في السنة السادسة من الهجرة حينما أضعفت عائشة - رضي الله عنها - فبعث - صلى الله عليه وسلم - في طلبه. وحانت الصلاة وليس معهم ماء فنزلت آية التيمم (٢٤) قوله تعالى: {... وإن كنتم مرضى أو على سفر أو جاء أحد منكم من الغائط أو لامستم النساء فلم تجدوا ماء فتيمموا صعيدا طيبا فامسحوا بوجوهكم وأيديكم منه...} (سورة النساء: ٤٢)

ثانياً: التدرج في مشروعية الصلاة

إن الصلاة لها مرتبة كبيرة في الشريعة الإسلامية. فهي ركن من أركان الإسلام. وكانت مكتوبة منذ فجره إلا أن الصلوات الخمس فرضت ليلة الإسراء والمعراج كما روي عن أنس بن مالك رضي

الله عنه قال: "فرضت على النبي - صلى الله عليه وسلم - ليلة أسري له صلوات خمسين ثم نقصت حتى جعلت خمسا..."^(٢٨)

وقد درج القرآن الكريم في مشروعية الصلاة عدة مراحل تمثيا مع قاعدة التدرج في التشريع. وهي كما يلي:

المرحلة الأولى:

إن قيام الليل كانت مفروضة في بداية الإسلام، فكان الرسول - صلى الله عليه وسلم - { يقوم الليل ومعه طائفة من المؤمنين^(٢٩) والدليل على ذلك قوله تعالى: {يا أيها المزمل. قل الليل إلا قليلا. نصفه أو انقص منه قليلا. أو زد عليه ورتل القرآن ترتيلا. } ("سورة المزمل: ١-٤)

المرحلة الثانية:

ثم تدرج الإسلام إلى فرضية الصلوات الخمس فهي نسخت الصلوات الأخرى^(٣٠) فصار قيام الليل تطوعا كما يدل عليه ما ورد في آخر هذه السورة من قوله تعالى: {إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثي الليل ونصفه وثلثه وطائفة من الذين معك والله يقدر الليل والنهار علم أن لن تحصوه فتاب عليكم فاقرءوا ما تيسر من القرآن علم أن سيكون منكم مرضى وآخرون يضربون في الأرض يبتغون من فضل الله وآخرون يقاتلون في سبيل الله فاقروا ما تيسر منه... } ("سورة المزمل: ٢٠). والدليل على فرضية الصلوات الخمس في القرآن قوله تعالى: {فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون وله الحمد في السماوات والأرض وعشيا وحين تظهرون.} (سورة الروم: ١٧-١٨). ووجه الاستدلال هنا ما روي عن ابن عباس أن الآية جامعة للصلوات الخمس، "تمسون" صلاة المغرب والعشاء، و"تصبحون" صلاة الفجر، و"عشيا" صلاة العصر، و"تظهرون" صلاة الظهر.^(٣١)

الثالث: التدرج في تحريم الخمر

إن الخمر أم الخبائث وأصل المصائب، ضررها يتناول الروح والجسد والمال والعرض والشرف والمجتمع ، فكم خربت دورا وأقامت فتنا ونقلت العقل من حالة التفكير والتدبر والحكمة والرشاد إلى الجنون والبغني والفساد. وكما أحدثت من العداوة والبغضاء، وقد أثبت الطب الحديث ضرر الخمر الفادح في

الجسم والعقل حتى قال بعض الأطباء: " اقلوا لي نصف الحانات أضمن لكم الاستغناء عن نصف المستشفيات والبيمارستانات(مستشفى الأمراض العقلية) والسجون".^(٢٥)

فلما كان القوم ألفوا شرب الخمر وأصبح جزءاً من حياتهم بأنهم كانوا يتعاطون شرب الخمر كما يشرب الواحد منا الماء الزلال فلم يكن من الحكمة أن يحرمه عليهم دفعة واحدة، لأنه لو حرمت عليهم دفعة واحدة لثق ذلك على نفوسهم، وربما لم يستجيبوا لذلك النهي، فالشارع الحكيم جرى في تحريمه على قاعدة التدرج.^(٢٦)

فالإسلام تدرج بهم في تحريم الخمر تدرجاً حكيماً استطاع بذلك أن يقتلع الشر والفساد من جذوره اقتلاعاً كاملاً. وكان ذلك في أربعة أدوار، كما يلي:

الدور الأول:

بدأ بالتنفير منه بطريق غير مباشر^(٢٧) والدليل على ذلك قول الله تبارك وتعالى المكي: {ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه سكراً ورزقاً حسناً إن في ذلك لآية لقوم يعقلون} (سورة النحل: ٦٧). فكان المسلمون يشربونها في أول الإسلام وهي لهم حلال.^(٢٨) فالله سبحانه وتعالى لم يذكر التحريم في الآية ولم يشر إليه وإنما ينفر منه بطريق غير مباشر.

الدور الثاني:

قام الإسلام في هذا الدور بالتنفير المباشر عن طريق المقارنة بين شيئين. شيء فيه نفع مادي ضئيل، وشيء فيه ضرر جسمي وصحي وعقلي كبير وخطر جسيم. والدليل على ذلك الآية القرآنية التي نزلت بالمدينة وهو: {يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس وإثمهما أكبر من نفعهما} (سورة البقرة: ٢١٩). فتركها قوم لقوله: "قل فيهما إثم كبير" وشربها قوم لقوله: "ومنافع للناس".

الدور الثالث:

ثم جاء حكم التحريم للخمر لكن تحريماً جزئياً، حيث حرم الله الخمر في أوقات الصلاة، فكان الرجل يشربها بعد صلاة العشاء فيصبح وقد زال سكره، ولكن الله لم يحرم الخمر تحريماً نهائياً والدليل على ذلك قوله تعالى: {يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون} (سورة النساء: ٤٢).

الدور الرابع:

وهذه المرحلة هي الأخيرة في تحريم الخمر التي حرم الله فيها الخمر تحريماً كلياً قاطعاً لجميع الأوقات بعد المراحل الثلاثة وبعد أيام كثيرة. والدليل على ذلك قوله سبحانه وتعالى: ﴿إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون﴾ (سورة المائدة: ٩٠).

رابعا: التدرج في تحريم الربا:

اعتبرت الشريعة الإسلامية الربا من أكبر الجرائم الاجتماعية والدينية. وشدت عليه حرباً لا هوادة فيها. وأوعد القرآن الكريم المتعاملين به عذاباً أليماً في الدنيا والآخرة. ولم يبلغ من تفضيع أمر من أمور الجاهلية - أراد الإسلام إبضاله- ما بلغ من تفضيع أمر الربا. ولا بلغ من التهديد في منكر من المنكرات كما بلغ في شأن الربا. فالربا في نظر الإسلام جريمة الجرائم وأساس المفاسد وأصل الشرور والآثام. وهو الوجه الكالح والضائع الذي يقابل الصدقة والبر والإحسان.

فمن ضرر الربا من الناحية النفسية أنه يولد في الإنسان حب الأثرة والأنانية. وبذلك تنعدم روح التضحية والإيثار، ومعاني حب الخير. وتتلاشى روابط الأخوة بين الإنسان وأخيه، فيكون وحشياً مفترساً يمتص دماء الناس. ومن ضرره من الناحية الاجتماعية أنه يولد العداوة والبغضاء بين أفراد المجتمع ويزرع في القلوب الحسد ويقضي على كل مظاهر الشفقة والحنان. وكذلك ضرره من الناحية الاقتصادية فإنه يقسم الناس إلى طبقتين: طبقة مترفة تعيش على النعيم والرفاهية. وطبقة معدمة تعيش على البؤس والحرمان.

ولقد انتهج الإسلام في تحريم الربا أربع مراحل مثل ما حدث في تحريم الخمر. وذلك تمشياً مع قاعدة التدرج في تشريع الأحكام. وهي كما يلي:

المرحلة الأولى:

أشار الله سبحانه وتعالى أولاً إلى بغضه للربا وأن الربا ليس له ثواب عند الله، والدليل على ذلك قوله تعالى: ﴿وما آتيتم من ربا ليربو في أموال الناس فلا يربو عند الله وما آتيتم من زكاة تريدون وجهه الله فأولئك هم المضعفون﴾ (سورة الروم: ٣٩).

هذه الآية الكريمة نزلت في مكة: وهي - كما يظهر - ليس فيها ما يشير إلى التحريم. وإنما فيها التنفير بطريق غير مباشر، فهي إذن موعظة سلبية.

المرحلة الثانية:

ثم جاء التحريم للربا في هذه المرحلة بالتلويح لا بالتصريح، وهذا نظير المرحلة الثانية في تحريم الخمر^(٤٤) والدليل على ذلك قوله تعالى: {فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات ما أحلت لهم وبصدهم عن سبيل الله كثيرا وأخذهم الربا وقد نهوا عنه وأكلهم أموال الناس بالباطل واعتدنا للكافرين منهم عذابا أليما} (سورة النساء: ١٦١).

هذه الآية مدنية وهي درس قصه الله علينا من سيرة اليهود الذين حرم عليهم الربا فأكلوه واستحقوا عليه اللعنة والغضب.

المرحلة الثالثة:

ثم جاء التحريم للربا هنا تحريما جزئيا حيث حرم عليهم نوعا من الربا الذي يسمى الربا الفاحش، وهو الربا الذي بلغ في الشناعة والقيح الذروة العليا وبلغ في الإجمام النهائية العظمى، حيث كان الدين فيه يتزايد حتى يصبح أضعافا مضاعفة. والدليل على ذلك قوله تعالى: {يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا أضعافا مضاعفة واتقوا الله لعلكم تفلحون} (سورة آل عمران: ١٢١).

المرحلة الرابعة:

هذه هي المرحلة الأخيرة، وهنا جاء التحريم الكلي القاطع للربا الذي لم يفرق فيه الإسلام بين قليل أو كثير. والدليل على ذلك قوله تعالى: {يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقي من الربا إن كنتم مؤمنين. فإن لم تفعلوا فأنزوا بحرب من الله ورسوله وإن تبتم فلكم رؤوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون} (سورة البقرة: ٢٧٨-٢٧٩). فهذه الآيات الكريمة من سورة البقرة جاءت بالتشريع القاطع في شأن الربا، وهي في المرحلة الأخيرة في تحريمه التي تشبه المرحلة النهائية في تحريم الخمر^(٤٨).

وهناك ترتيب آخر من التدرج في تحريم الربا وتطور المجتمع من طابع جاهلي إلى طابع إسلامي كما ذكره الدكتور محمد البهي:

“فالتنديد بالربا مثلا في قوله تعالى: {الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس} (سورة البقرة: ٢٧٥). يمثل المرحلة الأولى في تطور المجتمع الإسلامي، بينما النهي عنه في قوله تعالى: {يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذكروا ما بقي من الربا إن كنتم مؤمنين} يصور المرحلة الثانية في تطوره. أما المرحلة الثالثة في هذا التطور فيمثلها مثلا: حث المؤمنين على إنفاق أموالهم بدلا من تكديسها على حساب شقاء الآخرين عن طريق الربا، على نحو ما في قوله تعالى: {الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سرا وعلانية فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون} (سورة البقرة: ٢٧٤). والمرحلة الأخيرة: فرض عبادة الزكاة، كأدنى حد للإنفاق في سبيل المصلحة العامة.

وهكذا: إذا كان الربا علامة المجتمع الجاهلي المادي.. فإن الإنفاق قي سبيل أصحاب الحاجة من الأثرياء في المجتمع علامة المجتمع الإنساني أو المجتمع الإسلامي.^(٥١)

خاتمة البحث:

إن الإسلام دين كامل للحياة، ونظام شامل للخلق، منزل من الله تعالى لتنظيم الحياة البشرية ولتحويلها - مع جميع نواحيها - من طابع جاهلي إلى طابع إسلامي نقي، وتلويئها بلون إلهي طاهر. وهذا الأمر طبعاً لا يمكن في يوم واحد ولا في مرة واحدة، وإنما يحتاج إلى محاولة متواصلة صابرة، وإلى سعي متدرج حكيم يتمشى مع سنن الفطرة التي تقتضي التدرج. فلذا نرى جميع الأنبياء والرسل عامة ونبي القرآن الكريم خاصة قدموا الدعوة الإسلامية أمام القوم قليلاً قليلاً نظراً إلى الظروف والأوضاع، تمشياً على قاعدة التدرج، وحاولوا لتغيير أحوال الأمم رويداً رويداً. ففرض الإسلام عليهم ما فرض عبر مراحل عديدة، حتى لا يتعب به القوم ولا تنكره الأمة، ففرض الطهارة في ثلاثة مراحل. وفرض الصلاة بمرحلتين. وكذلك حرم ما أراد أن يحرم عليهم أيضاً بالتدرج وعبر المراحل فأخذ الناس إلى مقصدهم وهم لم يحسوا بالصعوبة. وإنما وجدوه سهلاً ميسراً. موافقاً للطبيعة ومناسياً بالعادة، فاتبعوه بكل احترام ونشاط فحرم الخمر مثلاً بأربعة أدوار كما حرم الربا كذلك بمراحل أربع.

المراجع و المصادر:

- (١) تفهيم القرآن، أبو الأعلى المودودي، ترجمة: عبد المنان طالب، أدونيك بروكاشوني، داكا، ٢٠٠٢م، ج١، ص٢٠.
- (٢) الرحيق المختوم، علامة صفي الرحمن موبارك فوري، ترجمة: خديجة اختر رجاعي، أكاديمية القرآن لندن، مكتب بنغلادش، ٢٠٠٠م، ص٩٨.
- (٣) سيرة سرور عالم، أبو الأعلى المودودي، ترجمة: عباس علي خان، شاتبيدي فروكاشوني، ٢٠٠١م، ج١، ص١٥.
- (٤) تاريخ الدعوة، الدكتور جمعة علي خولي، دار الطباعة المحمدية، ١٩٨٥م، ج٢، ص٢١-٢٢.
- (٥) تفهيم القرآن، ج١، ص٢٢.
- (٦) تفهيم القرآن، ج١، ص٢٤.
- (٧) أخرجه البخاري في صحيحه، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري، المؤسسة الإسلامية بنغلادش، داكا، ج٣، ص٣.
- (٨) فقه السيرة، الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي، دار الفكر، الطبعة الثامنة، ١٤٠٠هـ، ص٩٣.
- (٩) انظر: تاريخ الدعوة، الدكتور جمعة علي الخولي، دار الطباعة المحمدية، ١٤٠٤هـ، ج١، ص١٦١-١٦٣.
- (١٠) انظر: تفسير الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، ١٤١٢هـ، ج١٢، ص٣٠٠.
- (١١) انظر: تهذيب سيرة ابن هشام، عبد السلام هارون، مؤسسة الرسالة، ط٢٢، ١٤١٤هـ، ص٦٤.
- (١٢) انظر: فتح الباري، ابن حجر العسقلاني، دار الريان للتراث، الطبعة الثانية، ١٤٠٩هـ، ج١، ص٢٨١.
- (١٤) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الطهارة، باب وجوب الطهارة للصلاة، رقم الحديث: ٢٢٤.
- (١٥) انظر: أسباب النزول، الإمام أبو الحسن الواحدي النيسابوري، دار القبة للثقافة الإسلامية، الطبعة الثانية، ١٤٠٧هـ، ص١٨٥.

- (١٥) انظر: أسباب النزول، الإمام أبو الحسن الواحدي النيسابوري، دار القبلة للثقافة الإسلامية، الطبعة الثانية، ١٤٠٧هـ، ص ١٨٥.
- (١٦) أخرجه الترمذي، الإمام أبو عيسى محمد بن عيسى الترمذي، إسلامك سنتر المؤسسة الإسلامية بنغلادش) داكا، باب الصلاة، ج ١، رقم الحديث: ٢٠٤.
- (١٧) انظر: تفسير الطبري، ج ١٩، ص ٣٣.
- (١٨) نواسخ القرآن، ابن الجوزي، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى: ١٤١٢هـ، ص ٤٩٦.
- (١٩) أخرجه ابن جرير عن مجاهد، انظر: تفسير الطبري، ج ١٠، ص ١٧٤.
- (٢٠) روائع البيان في تفسير آيات الأحكام، محمد علي الصابوني، مكتبة الغزالي، بيروت، ج ١، ص ٢٨١.
- (٢١) تاريخ التشريع الإسلامي، عبد اللطيف المكي ومحمد علي السائيس ومحمد يوسف البربري، ط ٢، ١٢٦٥هـ، ص ٥٣.
- (٢٢) روائع البيان في تفسير آيات الأحكام، ج ١، ص ٢٧٣.
- (٢٣) روائع البيان في تفسير آيات الأحكام، ج ١، ص ٢٧٢.
- (٢٤) انظر: روائع البيان في تفسير آيات الأحكام، ج ١، ص ٣٩٠.
- (٢٥) روائع البيان في تفسير آيات الأحكام، ج ١، ص ٣٩٠.
- (٢٦) منج القرآن في تطوير المجتمع، الدكتور محمد البهي، مكتبة وهبة، الطبعة الثالثة، القاهرة، ١٣٩٩هـ، ص ٦.